

خطبة بعنوان: التفوق العلمي وأثره في تقدم الأمم

بتاريخ: 21 ذو القعدة 1442هـ - 2 يوليو 2021م

عناصر الخطبة:

أولاً: منزلة العلم والحجث عليه في الإسلام

ثانياً: أثر العلم في نهضة الأمم وتقدمها

ثالثاً: ظاهرة الغشخ في التعليم وأثرها على تقدم الأمم

الموضوع

الحمد لله رب العالمين القائل: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} (المجادلة: 11). وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله عليه وسلم . **أما بعد:**

أولاً: منزلة العلم والحجث عليه في الإسلام

لقد اهتم الإسلام بقيمة العلم أيما اهتمام، ولقد بلغت عناية الله - عز وجل - بنا لرفع الجهل عنا أن كان أول ما نزل من الوحي على نبينا أعظم كلمة هبط بها جبريل هي قوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} (العلق: 1)؛ وأمر الله عز وجل بالقراءة والعلم في أول آية نزلت من القرآن دليل واضح على أهمية العلم في تكوين عقل الإنسان وفي رفعه إلى المكانة السامية، فلا يستوي عند الله الذي يعلم والذي لا يعلم، قال تعالى: {هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} (الزمر: 9) ؛ ويرفع الله الذي يطلب العلم والذي يعمل به على غيره درجات، قال تعالى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} (المجادلة: 11). أي يرفع الذين أوتوا العلم من المؤمنين بفضل علمهم وسابقتهم درجات أي على من سواهم في الجنة.

يقول الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: "أي في الثواب في الآخرة وفي الكرامة في الدنيا، فيرفع المؤمن على من ليس بمؤمن والعالم على من ليس بعالم" وقال ابن مسعود: مدح الله العلماء في هذه الآية، والمعنى: أنه يرفع الله الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم (درجات) أي درجات في دينهم إذا فعلوا ما أمروا به. "أ.هـ

ولشرف العلم أباح الله لنا أكل الصيد الذي صاده الكلب المعلم، وإذا صاده كلب غير معلم لا يؤكل: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلَّبِينَ تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ} [المائدة: 4] ، هذا في عالم الكلاب، رفعه الله درجة عن أقرانه بالعلم ؛ فما بالك بمن تعلم الكتاب والسنة؟! لذلك قال صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ". (أحمد والبيهقي وابن ماجه بسند حسن). وقد لعن الرسول -صلى الله عليه وسلم- الدنيا بمن فيها إلا من

انتسب لشرف العلم فقال: "الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا ، إِلَّا ذَكَرَ اللَّهَ ، وَمَا وَالَاهُ ، أَوْ عَالِمًا ، أَوْ مُتَعَلِّمًا. " (الطبراني وابن ماجه والترمذي وحسنه)، وكما قيل: كن عالما أو متعلما ولا تكن الثالث فتهلك.

فهنيئاً لك أيها العالم والمتعلم؛ فما هو أفضل من أن يستغفر لك الحوت في البحر والدواب وحتى النمل تستغفر لطالب العلم؟! فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ؛ وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لَطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ؛ وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَعْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ؛ وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ؛ وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ؛ وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَإِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ". (أبو داود والترمذي وابن حبان في صحيحه بسند حسن).

ومع أن الإسلام حرم الحسد إلا أن الشارع أباحه في مجال العلم، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَطَهُ عَلَى هَلَكْتِهِ فِي الْحَقِّ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا". (متفق عليه).

إن الله لم يقصر الأجر على العلماء في حياتهم؛ بل امتد الأجر بعد موتهم وإلى قيام الساعة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ" (الترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح). ويحضرني قول الإمام الشافعي رحمه الله: قد مات قوم وما ماتت مكارمهم.....وعاش قوم وهم في الناس أموات

ولأهمية العلم نجد أنه صلى الله عليه وسلم جعل فداء كل أسير من أسرى بدر ممن يحسنون فن القراءة والكتابة، أن يعلم عشرة من أبناء الصحابة، ولم يقتصر اهتمام النبي عليه السلام بالحث على تعليم العربية فحسب؛ بل أمر بتعلم اللغات الأخرى، وكما قيل: (من تعلم لغة قوم أمن مكرهم).

وجه الة قول: فإن ما تقدم هو قليل من كثير ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في شأن عنايته بالمسألة العلمية؛ تعلمًا وتعليمًا؛ أقوالًا وأعمالًا؛ مما يبرز اهتمامه الفائق بولاية العلم والتعليم.

ثانيًا: أثر العلم في نهضة الأمم وتقدمها

إن العلم أساس نهضة الأمة وقيام الحضارات؛ فبالعلم تبنى الأجداد، وتَسُود الشعوب، وتبنى الممالك؛ وما أجمل قول سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم.....على الهدى لمن استهدى أدلاء

وقدر كل امرئ ما كان يحسنه.....والجاهلون لأهل العلم أعداء

ففر بعلم تعيش حيًا به أبدًا.....الناس موتى وأهل العلم أحياء

وما فشا الجهل في أمة من الأمم إلا قوض أركانها، وصدَّع بنيانها، وأوقعها في الرذائل والمتاهات المهلكة.

وكما قيل: العلم يبني بيوتًا لا عماد لهاوالجهل يهدم بيوت العز والكرم

وكم هو شديد الوقع على النفوس أن يرى في الناس من شاب رأسه، ورق عظمه، وهو يتعبد الله على غير بصيرة! وقد يصلى بعض الناس أربعين سنة، أو عشرين سنة، أو أقل أو أكثر وهو لم يصل في الحقيقة؛ لأن صلاته ناقصة الأركان، أو مختلة الشروط والواجبات؛ ومع ذلك لا يحاول تعلم أحكامها، بينما يُرى حريصاً على دنياه؛ ويكفي هذا دليلاً على أن الله سبحانه وتعالى لم يرد به خيراً، ولو تعلم العلوم الدنيوية، وتبحر فيها؛ وقد وصف الله تعالى أصحابها بقوله تعالى: { يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ }؛ [الروم: 7]. وقال جل شأنه: { بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلٌ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ }؛ [النمل: 66].

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله: "فهؤلاء ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها، فهم حذاق أذكيا في تحصيلها، ووجوه مكاسبها، وهم غافلون عن أمور الدين، وما ينفعهم في الدار الآخرة، كأن أحدهم مغفل لا ذهن له، ولا فكرة". أ.هـ . ويقول الحسن البصري: "والله ليلغن أحدهم بدنيته أنه يقلب الدرهم على ظفره، فيخبرك بوزنه، وما يحسن أن يصلي؛ فكيف تنهض الأمة - في جميع مجالاتها - بأمثال هؤلاء !!؟ إن من أهم عوامل النهوض بالأمة في المجال العلمي أن نهتم بالمعلم والمربي وأن نشكر جهوده، ونؤدي إليه بعضاً من حقه، وأن نعرف له قدره واحترامه وفضله.

إِنَّ الْمُعَلِّمَ وَالطَّيِّبَ كِلَيْهِمَا لَا يَنْصَحَانِ إِذَا هُمَا لَمْ يُكْرَمَا

فَاصْبِرْ لِدَائِكَ إِنْ أَهَنْتَ طَبِيبَهُ وَاصْبِرْ لِحَيْلِكَ إِنْ جَفَوْتَ مُعَلِّمًا

إن نهضة الأمة منوط بتربية أجيال على علم وتحمل المسؤولية؛ وما اختلت موازين الأمة، وفسد أبنائها إلا حينما ضاع الأبناء بين أبٍ مفرط لا يعلم عن حال أبنائه، ولا في أي مرحلة يدرسون، ولا مع من يذهبون ويجالسون، ولا عن مستواهم التحصيلي في الدراسة - وبين مدرس خان الأمانة، وتهاون في واجبه، ولم يدرك مسؤوليته؛ فدور الأسرة عظيم في غرس هذه القيم في نفوس أبنائها فهم مسئولون عنهم يوم القيامة.

ثالثاً: ظاهرة الغش في التعليم وأثرها على تقدم الأمم

إن ظاهرة الغش في التعليم لها أثرها السيء على تقدم الأمم؛ فالغش بلاء ابتلي به طلاب العلم صغاراً وكباراً، فهو ليس على مستوى المراحل الابتدائية فحسب، بل تجاوزها إلى الثانوية والجامعة والدراسات العليا، فكم من طالب قدم بحثاً ليس له فيه إلا أن اسمه على غلافه!! وكم من طالب قدم مشروعاً ولا يعرف عما فيه شيئاً!! هذه الظاهرة التي أنتجها الفصام النكد الذي يعيشه كثير منا في مجالات شتى، نعم لما عاش كثير من طلابنا فصاماً نكدًا بين العلم والعمل، ترى كثيراً منهم يحاول أن يغش في الامتحانات، وهو قد قرأ حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي تبرأ فيه من الغشاش قائلًا: " مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي " (مسلم)، بل ربما أنه يقرأه على ورقة الأسئلة، ولكن ذلك لا يجره فيه ساكنًا، لأنه قد استقر في ذهنه أنه لا علاقة بين العلم الذي يتعلمه وبين العمل الذي يجب أن يأتي به بعد هذا العلم .

